بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 37 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:26\01\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

تقريباً انتهينا من قوله تبارك وتعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

وذكرت في آخر البحث السابق أن تذليل هذه الآية بهذه المقولة التي تصلح للاستقلال، لما ذكر في علوم البيان والبلاغة من أن التذييل على قسمين: منه ما لا يصلح للاستقلالية، ومنه ما يصلح للاستقلالية ويجري مجرى الأمثال في الاستقلال وفشوا الاستعمال، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1] فـ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تقريباً بمعنى ﴿زَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ فهذا التذييل الذي جيء به للتأكيد يصلح للاستقلال، الآن يصلح شاهداً، فتقول: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ كذلك هذه الآية المباركة: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

وذكرت جواباً عن سؤال لماذا كان الاستشهاد بصوت الحمير مع أنه قد يكون هناك أصوات أزعج منها، أجبنا عن ذلك سابقاً، ونضيف اليوم بأن الآية لو كان المدار فيها على صرف الإزعاج يتأتى ذلك السؤال، أما لو كان قد انضم إلى الإزعاج شيء من التحقير والإهانة لمن يستعمل أسلوب رفع الصوت، فحينئذ هذا لا يتأتى في غير هذا المثال الذي ضرب في هذه الآية المباركة.

وبهذا يكون قد تم الكلام في مواعظ لقمان عليه السلام لابنه، لتبدأ السورة بجولة ثالثة[2]، لكن قبل أن ندخل في آية جديدة، وفي هذه الجولة الجديدة، لا بأس بالتبرك والاستفادة من بعض مواعظ لقمان الحكيم عليه السلام التي وردت في الروايات.

---

[1] الإسراء 81

[2] لأن الجولة الثانية كانت مواعظ لقمان × لابنه، والجولة الأولى كان ما قبل هذه المواعظ.

من جملة المواعظ المشهورة ما ذكره الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب الاختصاص، في حكَمِ لُقْمَانَ فِيمَا أَوْصَى بِهِ ابْنَهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ تَعَلَّمْتُ بِسَبْعَةِ آلَافٍ مِنَ الْحِكْمَةِ فَاحْفَظْ مِنْهَا أَرْبَعَةً وَمُرَّ مَعِي إِلَى الْجَنَّةِ: أَحْكِمْ سَفِينَتَكَ فَإِنَّ بَحْرَكَ عَمِيقٌ وَخَفِّفْ حَمْلَكَ فَإِنَّ الْعَقَبَةَ كَئُودٌ وَأَكْثِرِ الزَّادَ فَإِنَّ السَّفَرَ بَعِيدٌ وَأَخْلِصِ الْعَمَلَ فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ[3].

هذه الوصية التي في مطلعها يوجد مرغبات، وهو كثير ما يستعمل هذا الأسلوب في القرآن والروايات الوعظية، فلقمان الحكيم عليه السلام في البداية يقول: يَا بُنَيَّ. وفيها دلالة على أن هذه الوصية ناشئة عن شفقة أب بابنه، والأب الشفيق لا يريد إلا المصلحة لولده، كما ذكرنا في تفسير بداية آيات وصايا لقمان عليه السلام لابنه.

ثم يقول له: تَعَلَّمْتُ. طبعاً الآن في النسخ المطبوعة حركوها هكذا: تعلمتَ، يعني للابن. لكن في الواقع خلاف الظاهر؛ لأن الروايات التي تدل على أن لقمان الحكيم عليه السلام عاشر العديد من الأنبياء عليهم السلام، وبحسب الظاهر كان مديد العمر، وكان يتلقى الحكم والعلم والمواعظ منهم عليهم السلام، فهذا يناسب أن يقول: تعلمتُ، لا تعلمتَ للابن، فمن تعلم هذه الكم من الحكم لا يحتاج إلى أن نأتي ونعظه بهذا الوعظ.

يقول: يَا بُنَيَّ تَعَلَّمْتُ بِسَبْعَةِ آلَافٍ مِنَ الْحِكْمَةِ. فلقمان عليه السلام في هذا التمهيد يريد أن يعطي ابنه عصارة الحكم، ربما زمانك يكون مغايراً لزماني، لكن سوف أعطيك شيئاً ينفعك لزمانك إذا عملت به. لا أريد أن أطيل عليك بكل تلك الحكم التي تعلمتها، وإنما أريد أن أعطيك زبدتها وزلالها ولبها وجوهرها.

يَا بُنَيَّ تَعَلَّمْتُ بِسَبْعَةِ آلَافٍ مِنَ الْحِكْمَةِ فَاحْفَظْ مِنْهَا أَرْبَعَةً؛ باعتبار أن الكلام عن الحكمة، فيكون ذلك قرينة على أنه ليس المقصود من الحفظ مجرد الاستذكار، بل المقصود من الحفظ هو غايته، غاية حفظ الحكمة هو العمل بمقتضاها، ومن اللطائف في التعبير، يقول: فَاحْفَظْ مِنْهَا أَرْبَعَةً وَمُرَّ مَعِي إِلَى الْجَنَّةِ استعمل كلمة المرور التي تدل على نوع من العبور السريع، الذي يدلل على أهمية هذه الحكم،

[3] (1) الإختصاص، النص، ص: 341. ومنقول في البحار ج 5 ص 325.

وأن العامل بهذه الأمور الأربعة لا يقف، بل يمر بشكل سريع، يعبر العقبات الأخروية بشكل سريع، وَمُرَّ مَعِي إِلَى الْجَنَّةِ.

ما هي هذه الأمور؟

الحكمة الأولى: أَحْكِمْ سَفِينَتَكَ فَإِنَّ بَحْرَكَ عَمِيقٌ. واضح جداً أن هذا التعبير في هذه الحكمة الأولى ليس على حقيقته، في هذه الحكمة هناك بحر، وهناك سفينة، ففيها نوع من التشبيه التمثيلي التي تبتني عليه الاستعارة التمثيلية، كأنه شبه هذه الدنيا بالبحر العميق، التي تحتاج إلى وسيلة لكي لا يغرق فيها الإنسان، والوسيلة هي السفينة، هذه السفينة إذا لم تكن محكمة تقطعها وتمزقها الأمواج العاتية في هذه الدنيا.

لكن المهم كيف نحكم هذه السفينة؟ يعلمنا كيفية إحكامها ما ورد في خبر آخر في الكافي الشريف، عن لقمان الحكيم عليه السلام: يَا بُنَيَّ إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ[4] قَدْ غَرِقَ فِيهَا عَالَمٌ كَثِيرٌ فَلْتَكُنْ سَفِينَتُكَ فِيهَا تَقْوَى اللَّهِ وَحَشْوُهَا الْإِيمَانَ وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلَ وَقَيِّمُهَا الْعَقْلَ وَدَلِيلُهَا الْعِلْمَ وَسُكَّانُهَا الصَّبْرَ[5].

فإذن السفينة المحكمة هي التي تمتاز بهذه الأمور، أصل السفينة تكون مبنية على التقوى، وأثاث هذه السفينة يكون عبارة عن الإيمان، والشراع الذي يصمد أمام الرياح العاتية عبارة عن التوكل على الله تبارك وتعالى، كما أن إيمان أم موسى عليها السلام جعلها تلقي وليدها بدون حول ولا قوة في اليم، الذي جعلها تفعل ذلك ليس إلا التوكل على الله، فالذي يصد أمواج هذه الدنيا ورياح هذه الدنيا هو شراع التوكل على الله تبارك وتعالى، والسفينة تحتاج إلى قيم، وقيم السفينة هو العقل، كما في الرواية عن هشام بن الحكم في مناظرته لعمرو بن عبيد المعتزلي، هذه السفينة أيضاً تحتاج إلى دليل كي لا تذهب إلى أماكن لا يقصدها الإنسان، فيقول دليلها العلم، وفي هذه السفينة تحتاج إلى سكان، إلى من يركب فيها، يقول: سكانها الصبر ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

---

[4] هنا استعملت الرواية التشبيه البليغ، أي: الدنيا كالبحر العميق، لكن حذف أداة التشبيه، بينما في الحكمة التي نبحث عن لم يأت بصورة تشبيه، فهي استعارة تمثيلية.

[5] الكافي (ط - الإسلامية)، ج1، ص: 16. ويوجد رواية قريبة لها في الإختصاص، النص، ص: 336 عن الأوزاعي يقول فيها: َ يَا بُنَيَّ إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ هَلَكَ فِيهَا بَشَرٌ كَثِيرٌ فَلْتَكُنْ سَفِينَتُكَ فِيهَا تَقْوَى اللَّهِ وَحَشْوُهَا الْإِيمَانُ وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلُ وَسُكَّانُهَا الصَّبْرُ وَمَجَاذِيفُهَا الصَّوْمُ وَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ يَا بُنَيَّ مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ مِنْ غَيْرِ سَفِينَةٍ غَرِقَ.

هذه هي الحكمة الأولى بشكل مختصر، وإلا كل واحد من هذه المقاطع تحتاج إلى بحث طويل.

الحكمة الثانية: وَخَفِّفْ حَمْلَكَ فَإِنَّ الْعَقَبَةَ كَئُودٌ. من أجمل كلمات نهج البلاغة قول أمير المؤمنين عليه السلام: تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا[6]. نحن في هذه الدنيا في مضمار سباق نتسابق فيه، والذي يسبق في ميدان المسابقة هو من كان أخف حملاً، إذا حملت على ظهرك أثقالاً وتريد أن تتسابق لن تصل إلى الهدف إلا بعد جهد طويل، وهدفنا في دنيا هي مقر عبور هو الآخرة، وأمامنا في مضمار هذا السباق عقبات، العقبة هي المكان الوعر، فكيف إذا كانت عقبة كأداء، كؤود، أي: كثيرة المشقة. فلا يستطيع أن يتجاوز هذه العقبة إلا من تخفف من أثقال الذنوب "تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا" التي يقول عنها في الشريف الرضي رضوان الله تعالى عليه: فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً وما أبعد غورها من كلمة وأنقع نطفتها من حكمة، وقد نبهنا في كتاب الخصائص على عظم قدرها وشرف جوهرها[7].

طبعاً إذا رجعنا إلى كتاب خصائص يظهر أنه نبه، أي: أشار إلى أنها كلمة عظيمة، لكن لم يبحث فيها بشكل مفصل[8]. بحثتها في بشكل مفصل في كتاب البلاغة في مبحث إيجاز القصر.

إذن الحكمة الثانية هناك هدف للإنسان، ودون هذا الهدف عقبات كثيرة، هذه العقبات الكثيرة لا يستطيع أن يتجاوزها إلا من خفف ظهره من أعباء الذنوب، فإذن حتى نمر مع لقمان عليه السلام إلى الجنة لابد أن نخفف من أثقال الذنوب.

الحكمة الثالثة: وَأَكْثِرِ الزَّادَ فَإِنَّ السَّفَرَ بَعِيدٌ. الإنسان المسافر إلى مكان لفترة مؤقتة لا يحمل معه زاداً يثقله ويقعده عن أعماله، خصوصاً إذا كان مسافراً إلى بلد فيه ما يحتاج إليه، أما إذا كان في مكان لبرهة محدودة من الزمن، ويريد أن ينتقل إلى مكان دائم، لا يخرج منه بعد ذلك، ولا يعلم ما في هذا المكان، فإن العاقل لا شك أنه يحمل معه الزاد الكثير. نحن في هذه الدنيا في مرحلة عبور إلى دار وصفت في كتاب الله تبارك وتعالى بأنها: دار قرار[9]، ويبقى الإنسان فيها ولا يخرج، وأنه لابد أن يحمل

---

[6] نهج البلاغة (للصبحي صالح)، ص: 242

[7] نقل صاحب نهج البلاغة (للصبحي صالح)، ص 63 هكذا: [قال السيد الشريف أقول إن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله ص بكل كلام لمال به راجحاً وبرز عليه سابقاً. فأما قوله ع تخففوا تلحقوا فما سمع كلام أقل منه مسموعاً و لا أكثر منه محصولاً وما أبعد غورها من كلمة وأنقع نطفتها من حكمة وقد نبهنا في كتاب الخصائص على عظم قدرها وشرف جوهرها].

[8] خصائص الأئمة عليهم السلام (خصائص أمير المؤمنين عليه السلام)، ص: 112. قال الشريف الرضي أبو الحسن رضي الله عنه ما أقل هذه الكلمة وأكثر نفعها وأعظم قدرها وأبعد غورها وأسطع نورها وبعد هذه الكلمة قوله ع فَخَلْفَكُمُ السَّاعَةُ تَحْدُوكُمْ وَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُم.

[9] لم أعثر على كلمة قرار تنسب للآخرة. نعم ذكرت بدار المقامة، فاطر 35: {الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فيها لُغُوب}.

معه من مرحلة العبور ما زرعه فيها؛ لأن " الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ[10]" فلا بد حينئذ في سفره هذا أن يكثر من الزاد، لكن تارة يكثر من الزاد الذي ينفعه، وهو يستفيد منه، وأخرى يكثر من الزاد الذي يكون حصب جهنم، فلا بد حينئذ أن نحسن اختيار ذلك الزاد.

الحكمة الرابعة: وَأَخْلِصِ الْعَمَلَ فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ. يأتي عليها الكلام في الدرس القادم.

[10] عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية، ج1، ص: 267. مروي عن النبي صلى الله عليه وآله.